الفصل الثالث

الجريمة والعقاب في جزيرة الخداع!

- حدوة الحصان.. جزيرة الخداع!
- عندما تغلي المياه في درجة حرارة تحت الصفر!!
- النار والجليد في جزيرة الخداع
- مكاييل المطففين.. قتل في الجنوب..
- ونجيب في الشمال!
- الإسلام اول من وضع قواعد حماية البيئة في التاريخ.

أرخبيل شوتلاند الجنوبي..

إختفت تماماً معالم قارة أمريكا الجنوبية عن أنظارنا منذ مدة خلت، وأصبحنا نبحر الآن في "ممر دريك *Drake Passage*" الذي يفصل ما بين أمريكا الجنوبية والحافة الشمالية لقارة أنتاركتيكا ذلك النتوء المشهر كالنصل نحو الشمال من القارة المتجمدة على وجه الخصوص ولعل من نافلة القول أن نذكر ونحن في هذا البحر المضطرب المتلاطم الأمواج وسط رياح غربية شديدة البرودة، أن أعظم التيارات البحرية التي تم قياسها على كوكب الأرض، تمر من هنا، من هذا الممر الملاحي، ممر دريك وتعمل الرياح الغربية على دفع هذا التيار المسمى بتيار رأس هورن البارد من المحيط الهادي إلى المحيط الأطلسي، وهذا أحد أسباب خطورة تلك المنطقة من الناحية الملاحية. ولقد بلغ معدل جريان تيار رأس هورن البارد حوالي ٢٧٠ مليون متر مكعب في الثانية! وبلغ عرضه ما بين ٣٠٠ ـ ٢٠٠٠ كم!! وسرعة جريانه على السطح ٧٥٠ متر بالساعة!

كُتل الجليد العائمة على سطح البحر، هي دليلنا الجليّ على اقترابنا من القارة كانت كتلاً صغيرة الحجم طافية على سطح الماء، ثم ما لبثنا أن شاهدنا كتلاً ضخمة بعد أميالا عديدة من الإبحار نحو الجنوب، أشكالاً مختلفة من كتل الجليد واحدة منها بدت كالشراع من بعيد، وغيرها أهرامات طافية وأغلبها صناديق ضخمة بيضاء اللون بل شاهدنا كتلاً يفوق حجمها حجم سفينتنا أضعافاً مضاعفة!! وهذا مما سبب لي القلق والأرق في آن واحد، إذ لو أن سفينتنا اصطدمت بواحدة من تلك الكتل العملاقة، لأودت بها إلى قعر سحيق!. لقد تذكرت سفينة الركاب الفاخرة "تيتانك" وكانت أكبر سفينة ركاب في ذلك الوقت والتي غرقت في رحلتها الأولى من إنجلترا إلى نيويورك بعد اصطدامها بجبل جليدي عائم في إحدى ليالي شهر إبريل الباردة من عام ١٩١٢م. وغرق معها حوالي ١٥٠٠ شخص!

أخذت أراقب ربان السفينة وهو "يناور" بصعوبة بين تلك الكتل الضخمة من الجليد ولكن المشكلة الكبرى، هي أن ما يبدو من تلك الكتل عائما على سطح البحر هو مجرد جزء صغير، وكما يقول المثل "الخافي أعظم". وهنا أمثلة أوروبية كثيرة تدور حول هذا المعنى منها مثلا أن جبل الجليد لا ترى إلا قمته.. وهذا صحيح إذ أن الجزء العائم أو الطافي على سطح البحر والذي نشاهده هو عبارة عن سُبع أو عُشر الجزء المغمور تحت الماء! أي أن ما نسبته ٩٠٪ من جبل الجليد يكون مغموراً تحت الماء!، وهذا هو سبب القلق. إننا نستطيع تجنب الإصطدام بالجزء العائم، ولكن أين يقع الجزء المغمور! تلك هي المشكلة!

أما أكبر كتلة جليدية عائمة شوهدت فكانت في مياه أنتاركتيكا التي نبحر فيها الآن وكان طولها ٣٣٥ كم وعرضها ٩٧كم. أي ما مساحته ٣٢٥٠٠ كم٢ تقريباً! أي أنها أكبر من مساحة بلجيكا، وثلاثة أمثال مساحة لبنان!!. أما أعلى ارتفاع لكتلة جليدية فكان ١٢٠ متر فوق سطح البحر، هذا يعني أن الحجم والإرتفاع الحقيقي أكثر من ذلك بسبع أو عشر مرات...

والجليد محور حديثنا هنا هو الماء في حالته الصلبة، والماء هو العنصر الوحيد الذي يتحول إلى الحالات الثلاث للمادة، الحالة الغازية (بخارماء) والحالة السائلة وهو الماء الموجود في كل مكان، والحالة الصلبة (الثلج).

وطفو الجليد على سطح الماء هو بحد ذاته حالة غريبة لا يخضع لقوانين الطبيعة التي نعرفها، إذ أنه من المفترض أن يغوص في الماء لا أن يطفوا فوقه! ولكن لأن الماء أصلا هو استثناء غريب في قوانين الطبيعة، فأن الجليد يطفو فوقه ولا يغوص في أعماقه. وهذا الإستثناء هو الذي جنب تجمد الأنهار والبحيرات، بل البحار والمحيطات على كوكب الأرض!! وهي قضية علمية يطول بل ويصعب شرحها

عندما يحين فصل الصيف في أنتاركتيكا، تنفصل كتل ضخمة وكثيرة من الطُنوف الجليدية (جمع طُنف وهو البساط الجليدي الذي يتصل باليابسة ويغطيها، ويشكِّل معها ما يشبه الأرض فلا يُعرف معها أهي أرض أم بحر مغطى بالجليد!). كما تنفصل أيضا من السدود الجليدية *"Glacier"* المتصلة بالقارة.

يقوم عدد من الباحثين والعلماء بإلقاء محاضرات يومية تدور حول مواضيع مختلفة تاريخية وجغرافية وجيولوجية، قصة واكتشاف القارة والمغامرين الأوائل الذين وصلوها قصة السباق بين أمندسن وسكون إلى القطب الجنوبي حياة البطريق وأطواره، عادات عجول البحر، حياة الحيتان في المحيطات الأحياء المائية الدقيقة التي تعيش في مياه القارة، مواضيع كثيرة وتبدأ عادة المحاضرات في الساعة التاسعة صباحاً وحتى موعد الغداء ومن الثالثة مساء إلى موعد العشاء وبعد العشاء مناقشات حرة.

وصلنا أخيراً إلى مجموعة من الجزر يطلق عليها اسم "جزر شتلاند الجنوبية" وتتكون من عدة جزر أهمها جزيرة الملك جورج، وجزيرة ليقنغستون التي يبلغ طولها حوالي ٧٥ كم وعرضها ٢٥ كم، وجزيرة سميث الجبلية والتي يبلغ أعلى قمة فيها حوالي ٢١٠٥ متر، ويغطي الجليد هذه الجزر في الشتاء، كما توجد فيها بحيرات عذبة يزول عنها الجمد أو يقل في فصل الصيف.

وتتراوح درجة الحرارة في تلك الجزر ما بين (-٣ إلى -٣٠ درجة مئوية) ومعظمها جزر بركانية ذات طبيعة نشطة، وتسودها أجواء ثلجية على مدار العام ونادراً ما تشرق الشمس في أجوائها الملبدة بالغيوم. كما تضربها رياح غربية شديدة القسوة، وتحيط بها الطُنوف الجليدية شتاء، أما صيفاً فتنفصل كتل ضخمة من الطُنوف الجليدية المحيطة بها، حيث تحملها التيارات البحرية إلى غير هدى

يعيش في تلك الجزر حوالي ١٧ نوع من أنواع الطيور البحرية كالبطريق والنورس أهمها بطريق من نوع *"Chinstrap"* إذ يوجد منه حوالي ٧٥٠ ألف طائر وحوالي ٥٠ ألف طائر من طيور الغدفان (جمع غُداف، ويسمى أيضاً بغراب القيظ ولا أعرف لماذا سمي بهذا الاسم أي غراب القيظ رغم أنه يعيش في أكثر مناطق الأرض برودة!!).

كما يوجد حوالي ٥٠ ألف بطريق من نوع أديلي *"Adelie"*، و ٢٠ ألف بطريق من نوع المكرونة! كما يعيش في تلك الجزر حوالي ٣٠٠٠ من فقمة الفيل *"Elephant"* وفقمه ذات الفراء *"Furand"*. لا أعرف كيف أحصوها ولكن هكذا سمعت منهم! ولعل الأعداد الآن قد زدت أو قلت الله أعلم!.

جزيرة شتلاند لم تكن ضمن برنامج الرحلة، ولكننا مررنا بالقرب منها بإتجاه جزيرة *"Deception"* والتي تقع جنوب الجزر، و "دسبشون" كلمة إنجليزية وأسبانية أيضاً وتعني الخداع، أي جزيرة الخداع، وهي على شكل حدوة الحصان أو الهلال،يتوسطها خليج صغير.

أخذ الربان يناور بسفينته بين الجزر وكتل الجليد الضخمة إلى أن دخل بين طرفي الهلال أو الجزيرة إلى الخليج المطُوق من جميع الجهات بأرض الجزيرة، ماعداً المدخل أو الممر حيث تنتصب على جانبيه جبال بركانية سوداء صلدة، وعندما وصل إلى منتصف الخليج والذي يشبه البحيرة ألقى المرساة وأوقف محركات السفينة استعداداً للنزول.

نودي علينا بالتجمع في صالة السفينة الرئيسية، أخذ مساعد الربان يشرح قواعد السلامة في النزول والصعود، كما شدد المسئول الإداري عن شئون الركاب على ضرورة اتقاء البرد، بارتداء ما يمكن ارتدائه من ملابس ثقيلة وأردية وخاصة القدمين واليدين. ثم أضاف أحد العلماء قائلاً: "ستشاهدون طيور البطريق وحيوان الفقمة – عجول البحر – عليكم أن تتركوا مسافة لا تقل عن خمسة أمتار عن البطريق، ولا تقل عن سبعة أمتار عن عجول

البحر، كما أنه المحظور تماماً إلقاء أية نفايات حتى ولو عود كبريت، كما أن التدخين ممنوع، لذا فلا مجال لالقاء أعقاب السجائر إطلاقا". علق العجوز الكندي قائلا: "إذاً علينا أن نحمل أدوات قياس المسافة، ولكن ما العمل إذا لم يلتزم البطريق أو عجل البحر بهذه القواعد ودنوا منا أقرب من خمسة أو سبعة أمتار؟!".. حسبت أن العالم سوف يغضب لهذا التهكم إلا أنه أجاب على دعابة الكندي والتي ضحك لها جميع الركاب بقوله: هذا يعني أن البطريق قد أنِسَ إليكم، وإذا دنا منكم داعبوه ولا ترعبوه أو تنفرّوه!

في جزيرة الخداع!

إرتديت ثلاثة سراويل (بنطلونات)، الأول قطن سميك، والثاني صوف والثالث من المشمع الذي لا ينفذ منه الماء!، كما ارتديت مالا يقل عن خمس سترات وغطاء صوف للرأس، وجوربين أحدهما قطن سميك والثاني صوف أكثر سمكاً! والقفاز الجلدي المبطن بالفرو وأخذت المصورتين (الكاميرتين) إحداهما "للفيديو" وعلم دولة قطر.

تم تقسيم الركاب إلى أربع مجموعات، كل مجموعة تتكون من فوجين، وذلك لكي يسهل عليهم استخدام الزوارق المطاطية المعروفة باسم "زوديالك" للوصول إلى أرض الجزيرة في رحلتين لكل مجموعة، بحيث تحمل الرحلة الواحدة فوجاً واحداً..

جاءني الكندي العجوز وزوجته يتضاحكان وسألاني عن العلم الذي أحمله ولماذا؟ فقلت له: إنه علم بلدي، وقد جئت به هنا لوضع اليد على بعض الجزر باسم بلدي!.. لاشك أنني كنت أداعبه، ذلك لأن "وضع اليد قضية طويلة..

غاب الرجل وزوجته.. ثم عاد مرة أخرى وقالت الزوجة: "أترى ذلك الرجل الواقف هناك وقد قطب جبينه وعبس بوجهه؟..

وأشارت إلى أحدهم.. قلت نعم وما شأنه؟.. قالت إنه من تشيلي.. قلت: إنها المرة الأولى التي أعرف فيها أن أحداً من تشيلي يرافقنا على هذه الرحلة.. قالت ليس هذا القصد، بل إن الرجل غضب عندما أخبرناه بأمرك، ويقول الأ يكفي أن تنازعنا بريطانيا والأرجنتين.. حتى يأتينا هذا القطري رافعا علم بلاده لكي ينازعنا ممتلكاتنا؟!.. ذلك إن شبه جزيرة أنتاركتيكا وما حولها من جزر، تتنازع عليها حالياً كل من الأرجنتين وبريطانيا وتشيلي، ولقد ظن الرجل أن دولة قطر سوف تنازعهم فيها!..

ذهبت للرجل وقلت له: لا عليك أنا لم آت إلى هنا لكي أطالب بأراضٍ أو جزر باسم بلدي، لأنه ببساطة لم يكلفني أحد بهذا، ثم إن دولة قطر وسائر دول مجلس التعاون والدول العربية دول مسالمة ولا شأن لها بهذا النزاع أو غيره، ثم إنني مجرد مغامر وليست لي أية صفة رسمية ولا أشغل منصباً رفيعاً في بلادي فأنا مجرد موظف صغير، ثم والأهم من هذا كله أن هذا العلم الذي تراه هنا، هو علم سلام يحمل رسالة سلام وتعاون في سبيل تجنب ويلات الحرب وإرساء دعائم السلام وحماية البيئة على كوكب الأرض وفي هذه القارة على وجه الخصوص...

كان عدد من الركاب يستمعون للحوار، فصفقوا لي جميعاً ثم صافحني الرجل بحرارة قائلا: "قاتل الله هذا الكندي العجوز الذي كاد أن يُشعِل الحرب بيني وبينك!!".

أُنزلت قوارب المطاط وأخذت تحمل الأفواج إلى الجزيرة، وما أن وطأت قدمي أرض الجزيرة حتى تخيرت مكاناً مرتفعاً، بعيداً عن مستنقعات المياه التي تكونت بفعل ذوبان الجليد، وعلى مرأي من الجميع، رفعت الأذان ثم أقمت الصلاة بعد أن نصبت العلم قريباً مني. أخذ القوم ينظرون إلي بدهشة، ثم بدأوا في التقاط الصور التذكارية لما يدور أمامهم وبعد أن فرغت من الصلاة، أقبل بعضهم نحوي يسألونني عن الطقوس التي قمت بها فشرحت لهم أنني دعوت الله سبحانه وتعالى من خلال صلاتي تلك بأن يحمي كوكب الأرض من الدمار والخراب وأن يحمي قارة أنتاركتيكا على وجه الخصوص من العبث وأن يعم السلام جميع شعوب العالم.. علق أحدهم قائلاً: لا يمكن أن يكون دين وقوم الحرب والسلام محور دينهم وصلاتهم ودعائهم.. يقصد بذلك المسلمين.

تعتبر جزيرة "دسبشون" أو الخداع، مكاناً مثالياً من الناحية الملاحية للرسو فيها والإحتماء بها من الأعاصير والرياح وذلك لأن الجبال تحيط بخليجها الداخلي من كل

جانب، فلا غرو بأن كانت الجزيرة هي أول أجزاء القارة التي أقيمت فيها محطات ومنشآت.. ولكن إذا كان الأمر كذلك، فلماذا سميت بجزيرة الخداع؟!

"دسبشون" عبارة عن جزيرة بركانية، فيها بركان نشط، كانت مغامرة من بعضنا أن نذهب إليه ونطل في جوفه من خلال فوهته المشرعة!، لأنه كثيراً ما يثور ويقذف بالحمم لذا فإنها تعتبر خطرة جداً، وغير مأمونة في جميع الأحوال. ذلك أن القوى المضطربة في باطن الأرض *"Geothermal"* ترفع من درجة حرارة ترابها لتصل أحياناً إلى ٥٠ درجة مئوية!، بل أنها ترفع درجة حرارة مياه الخليج الذي تحتضنه الجزيرة إلى درجة البخر في الهواء البارد، أي في درجة حرارة أقل من الصفر!!، بل أنه في سنة ١٩٢١ بلغت درجة حرارة المياه حداً مسحت معه طلاء السفن التي كانت راسية في الخليج الذي ترسوا فيه سفينتنا الآن!!. لهذا سميت جزيرة الخداع.

يوجد في الجزيرة صهاريج كبيرة ومجموعة من الآلات الصدأة، ومنازل خشبية ومخزن كبير جداً يسع عدة شاحنات، وهي عبارة عن بقايا منشآت قاعدة مهجورة.. حسبتُ في البداية أن تلك الصهاريج الضخمة هي لتخزين الوقود المستخدم في تشغيل المحطة الكهربائية والتي تمد القاعدة بالطاقة اللازمة للإنارة والتدفئة وسائر الأمور المعيشية الأخرى، ولكن أخبرني أحد الباحثين بأن تلك القاعدة كانت عبارة عن محطة إستقبال الحيتان بعد صيدها من مياه المحيط الجنوبي، حيث يتم فيها إستخراج زيت الحيتان والذي يتم تجميعه في تلك الصهاريج الضخمة.. جريمة قتل الحيتان في قاع العالم بعيداً عن أنظار الناس كانت ولازلت تدور على قدم وساق، بينما هناك في الشمال حيث أنظار العالم شاخصة، تتنادى الدول بأساطيلها وطائراتها وجنودها لإنقاذ حوتين حاصرتهما الثلوج! ياله من زيف وخداع!

أنشأت تلك المحطة سنة ١٩١٠، وكانت أول محطة من نوعها تُقام في أنتاركتيكا لصيد وتصنيع الحيتان ومنتجاتها. ولقد استمرت المحطة في العمل حتى عام ١٩٣١ وتم إغلاقها عام ١٩٤٤ ليس لأن الضمير الإنجليزي الذي أنشأ المحطة، أو الضمير النرويجي الذي أدارها قد صحا فجأة، بل لخطورة البقاء هناك بجوار بركان لا يعرف أحد متى يثور. وعلى كل حال فهو قد ثار ودمرها سنة ١٩٦٩. إنها محطة إنجليزية، كان يديرها نرويجيون وكان ما يجري فيها جريمة بكل المقاييس، حتى بمقاييسهم هم. وكان عقاباً إلهياً. ولازالت هذه الجزيرة مهجورة حتى اليوم.

مكاييل المطففين!

وجدت في أرض المحطة لحداً، إنتصب فوقه صليبٌ خشبيٌّ كبيرٌ، كُتب على عارضته الأفقية اسم صاحب اللحد، والذي يبدوا من اسمه أنه نرويجي. ولا أظن والله أعلم – أن صاحب القبر شهيدٌ من شهداء العلم والمعرفة وحماية الحياة على كوكب الأرض، بل أغلب الظن أنه أحد قتلة الحيتان. ولقد تأملت في قدرة الله الذي بعث لهم البركان وسلط عليهم حممه عقاباً لهم. وتساءلت، هل فاجأت حمم البركان أولئك القوم وأخرجتهم من أكواخهم "بلابيص" على حد تعبير النبوي إسماعيل وزير داخلية الرئيس المصري السابق انور السادات؟! الله وحده أعلم.

والمعروف أن الحمم البركانية عندما تصيب كائناً حياً كالإنسان والحيوان والطير تحوله إلى حجر وهو على هيئته التي كان عليها. تذكرت قصة عاد وثمود وكيف فاجأتهم "الطاغية" وهم في غيهم سادرين يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ تُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤ ﴾[1]

صدق الله العظيم

حقا إن الله لبالمرصاد، لقد ظن أولئك القوم إنهم بعيدون عن أعين الناس يفعلون ما يحلو لهم، ونسوا عين الله التي لا تنام. تذكرت حرارة باطن الأرض في هذه الجزيرة

١- سورة الفجر الآيات: ٦:١٤

وتساءلت: لعل هذا المسجيّ في هذا اللحد قد ناله من عذاب الحريق وهو في قبره قبل أن يقوم الناس ليوم الحساب!، إذا كان الإنسان لا يستطيع السير على أرض هذه الجزيرة لسخونة التربة الشديدة. بسبب الحرارة المنبعثة من باطنها فكيف لمن ساقه سوء عمله بأن يدفن في جوفها؟!

لقد قيل لنا قبل النزول إلى الجزيرة "لا تقتربوا أقل من خمسة أمتار من البطريق حتى لا ترعبوه!" يا لها من إنسانية، إنهم لا يهتمون بحياة الطائر فقط، بل بحالته النفسية أيضاً. سمعاً وطاعة يا رواد المدينة والتحضر والإنسانية!. ولكن السؤال الآن أين هو البطريق؟ إننا منذ وطئنا أرض الجزيرة ونحن لم نشاهد بعد طائراً واحداً منها. سألت أحد الباحثين عنها فقال: "لقد ارتفعت درجة الحرارة هنا فهي الآن خمس درجات مئوية تحت الصفر!، لذا فإن طيور البطريق لم تعد تتحمل هذه الحرارة المرتفعة وغادرت أسرابها إلى داخل القارة حيث البرودة والإنتعاش!!".. أسناني تصطك وفرائصي ترتعد من شدة البرودة ودرجة الحرارة خمسة تحت الصفر.. أشعر كأن قدميَّ قد وضعتا وسط قالب من ثلج رغم الجوارب القطنية والصوفية داخل حذاء طويل مبطن هو الآخر بالفرو.. ويديَّ لا أكاد أحس بهما رغم القفاز الجلدي السميك.. وطيور البطريق هاجرت إلى داخل القارة لأنها لم تعد تحتمل الحرارة المرتفعة في الجزيرة!! يالها من كائنات غريبة! فلا عجب إذا أن تكون هذه الطيور هي سيدة القارة المتجمدة.

أخيراً خرج أحد طيور البطريق من الماء وهو يتمطىّ.. وأخذ يمشي الهوينا على الشاطئ وهو يترنح ذات اليمين وذات الشمال، كسيدة عجوز تجاهد في سيرها حتى تحفظ توازنها! أخذ ينفض الماء عن ريشه المبلل، اقتربت منه قليلا، وانطبح المصورون المحترفون أرضاً وصوبوا عدسات مصوراتهم "كاميراتهم" الطويلة العجيبة نحوه.. بدا الطائر متعجباً أولا من

هذه "الكائنات العجيبة" التي هي نحن ولعله أخذ يتساءل من أين جاءت هذه "البطاريق العملاقة" ذلك لأن البطريق يحسب الإنسان طائراً مثله تماماً ولكن من فصيلة أكبر!!.. وعندما تبين له ألا خطر عليه منا، وعندما لاحظ اهتمام المصورين به، أخذ يستعرض "مفاتنه" أمام عدساتهم كإحدى عارضات الأزياء الشهيرات!. تارة يميل برأسه نحو اليمين رافعاً أحد جناحيه إلى أعلى، وتارة أخرى يرفع إحدى رجليه داساً منقاره وسط ريش صدره الكثيف.. وهكذا حتى بدا لي أنه قد أصابه الغرور! إذ لم يعد يحفل بالجمع الذي احتشد لمراقبته، ولا لهؤلاء المصورين الذين التفوا حوله!.

أخذت أقترب منه شيئاً فشيئاً، جاهداً في تقدير مسافة الخمسة أمتار المسموحة لي! ذلك لأن المصورة "الكاميرا" التي أحملها معي لا تـُبينٌ تفاصيل الطائر الدقيقة عن بعد التقطت له العديد من الصور ثم وددت أن تجمعني معه صورة واحدة، ولم لا؟ أوليس هو سيد القارة!. طلبت من سيدة عجوز من ركاب السفينة كانت واقفة بقربي، أن تأخذ لي صورة مع هذا "النجم السينمائي" الأنيق، ناولتها المصورة وعدت إلى موضعي قريباً منه كنت موجهاً بصري نحو المصورة، وأنا أتراجع إلى الخلف.. وإذا بالطائر يطلق صيحة عالية وهو رافعاً جناحيه!. فقالت العجوز: "يالك من عدواني جداً! لقد أفزعته!" أنا أفزعته؟! ولماذا ظننت أنه فزع؟ ولماذا لا تكون صيحته تلك تعبيراً عن أي شيء آخر غير الفزع؟

كان علي أن أُلقنِ تلك العجوز درساً، وأبين لها إلى أين وصلت مكاييل المطففين عندهم. قتل في الجنوب ونحيب في الشمال!

الإسلام وقواعد حماية البيئة

انتهت زيارتنا للجزيرة، نحمد الله أن البركان كان في غفوته، رغم الأبخرة المتصاعدة من فوهته كأنها أنفاس شيطان نائم!

نظام التعليم والتدريب على السفينة، يتيح لأي شخص أن يقدم محاضرة أو أن يقيم ندوة عن أي موضع، بشرط ألا يتعارض وقتها مع وقت المحاضرات اليومية المعتادة، لأنه لا يوجد سوى قاعة واحدة للمحاضرات أما القاعة الرئيسية فهي للقراءة والتسلية والأحاديث الجانبية، وعلى من يريد أن يقدم محاضرة ما، أن يسجل موضوع المحاضرة ووقتها على اللوحة المعلقة في القاعة الرئيسية، أو أن يعلن عنها مباشرة على الملأ بعد التنسيق مع المسئول عن إقامة وتقديم تلك المحاضرات

أعلنت أنني أنوي تقديم كلمة عامة عن العرب والمسلمين ودور الإسلام في وضع أول قواعد وقوانين في التاريخ لحماية الكائنات الحية والبيئة على كوكب الأرض وضربت لذلك موعداً.

إكتظت القاعة بالحضور ربما لأنه يعتبر شيئاً جديداً بالنسبة لهم، ولحسن الحظ فإنني قد حملت معي مجموعة من الكتب الإسلامية باللغة الإنجليزية لتوزيعها على العلماء العاملين في المحطات والمقيمين في القارة، كما حملت معي كتب ومطبوعات عديدة عن دولة قطر.

حمدت الله تعالى، وطلبت منه جلت قدرته أن يلهمني الصواب وأن يعينني على هؤلاء القوم، وخاصة وأن بينهم نخبة من المفكرين والفلاسفة والعلماء في تخصصات شتى وكانت العجوز الشمطاء التي اتهمتني بالعدوانية معهم تترقب قولي. وكنت قد هيأت

الصالة بعرض العديد من الصور والمناظر الجميلة على جوانبها والتي جلبتها معي. وقد أخذ الجميع يقلبوّن وجوههم فيها ويعربون عن إعجابهم.

بدأت قولي بذكر وصف العجوز لي بأنني "إرهابي" أو عدواني جداً، لأن البطريق أطلق صيحة ورفرف بجناحيه عندما رآني! وما يدريها لعله كان يرحب بي، أو لم يذكر لنا أحد الباحثين في محاضرة من محاضراته عن البطاريق بأنها تعتبر الإنسان بطريق مثلها!، ثم كيف أكون إرهابيا وأنا لا أحمل معي سوى آلة تصوير "كاميرا" وليس أسلحة نووية أو جرثومية أو كيماوية أو "بالليزر" أو غيرها من الأسلحة الرهيبة التي ابتدعتها ولأول مرة في تاريخ الإنسانية عقول أوربية وأمريكية.

ثم ذكرت لهم ما شاهدوه في الجزيرة من جرائم قتل لا حصر لها كانت تتم لآلاف الحيتان بعيدا عن أعين الناس، ولكن ليس ببعيد عن عين الله التي لا تنام.. كما ذكرتهم أيضا بالتمثيلية السخيفة الي قامت بها أساطيل بعض الدول أمام عدسات أجهزة التلفاز والأقمار الصناعية بدعوى إنقاذ حوتين حاصرتهما الثلوج.. وقلت لهم: إنكم تعلمون جميعاً ومن خلال المحاضرات القيمّة التي كان يلقيها علينا نخبة صادقة أمينة من علماء جماعة السلام الأخضر الذين يرافقوننا على ظهر هذه السفينة، إن الحيتان قد عاشت ومنذ بدء الخليقة وحتى اليوم، وإلى ما يشاء الله، بين الثلوج. وأن بيئتها المثالية التي تنعم فيها بالأمن والأمان والعيش الكريم، هي هنا في هذه البحار التي تحوي من الثلوج أضعاف ما تحويه بحار العالم الأخرى. وأن الله سبحانه وتعالى قد ألهمها كيف تحمي نفسها من الثلوج وغير الثلوج. أما أن تحمي نفسها من الإنسان فهذا ما لم تتعلمه بعد لسبب بسيط جداً وهو أن الله قد أمر الإنسان وكلفّه بحماية الحياة على ظهر الأرض وتعميرها لا تدميرها. وأن المسئولية هنا تقع على عاتق الإنسان لا الحيوان.

ثم إنه لشيء عظيم أن نتعلم كيف نبتعد ما مقداره خمسة أمتار عن طائر البطريق! وهي لعمري بدعة سخيفة ولكنني أقبل بها احتراماً للأنظمة المتبعة. ولكن بالله عليكم أجيبوني، هل اخترعت مدنيتكم وإنسانيتكم قانوناً واحداً يحمي الأبرياء من الأطفال والنساء والشيوخ في البوسنة والهرسك وفلسطين وسائر بلاد المسلمين؟... هل تناديتم فيما بينكم بأن يكف المعتدون في تلك الديار وغيرها عن الجرائم التي يرتكبونها؟ وهل وصمت تلك السيدة هاتيك الجرائم بالعدوانية، كما وصمتني أنا لمجرد أنني أخذت صورة لطائر؟.. ولكن هل تعلمون بأن المسلمين هم أول من وضع قوانين وقواعد لحماية البيئة وما حوت من إنسان وحيوان ونبات في التاريخ بأسره؟

تعلمون جيداً أننا معشر المسلمين، قد حرم علينا أكل لحم الخنزير، وهو عندنا نجس وحيوان قذر، ويحمل الكثير من الأمراض والأوبئة. ولكن مع ذلك فإن ديننا قد حرّم علينا إيذاءه بأي صورة من الصور وترويعه أو مطاردته. لقد علمّنا ديننا كيف ينبغي علينا أن نغرس شجرة حتى ولو قامت القيامة ذلك الوقت.

ثم أخذت وبتوفيق من الله أشرح لهم دور الإسلام في حماية البيئة ليس فقط في ديار المسلمين بل في أوروبا، عندما وقف المسلمون سداً منيعاً أمام جحافل المغول إذ لولا المسلمون، لوصل المغول إلى أوروبا التي كانت هدفهم النهائي، ولأبادوا الزرع والضرع، ودمروا الحرث والنسل كما فعلوا في ديار المسلمين.. وأن المسلمين على امتداد تاريخهم كانوا دائماً في حالة دفاع عن النفس بدليل أن معظم الحروب كانت تدور في أراضيهم كالحروب الصليبية وما تلاها من حروب استعمارية دامت قروناً طويلة.

مبادئ الإسلام للعلماء.

إنتهى الحديث، ولم ينته النقاش حوله، سواء في ذلك اليوم أو ما تلاه من أيام وحتى عودتنا مرة أخرى إلى مدينة "أشوية". أسئلة كثيرة طرحت عليَّ عن الإسلام لا كدين فقط بل كمنهج وتعاليم وقواعد وأسلوب حياة.. شرحت لهم قواعد الإسلام وتعاليمه في معاملة الإنسان للإنسان، أخلاق السلام وأخلاق الحرب عند المسلم معاملة الإنسان للحيوان والنبات والأرض..

جاءت العجوز تعتذر عما بدر منها من قول سبب لي الانزعاج، قالت إنني لم أكن أعرف كل هذه المعلومات عن الإسلام الذي جاء بكل هذه التعاليم منذ ألف وأربعمائة سنة ونصف. ثم جاءني أستاذ التاريخ الأمريكي وزوجته يطلبان المزيد من الشرح والتوضيح وقال لي البروفسور الأمريكي "رغم أنني أستاذ وأقوم بتدريس الطلبة في الجامعة ومن ضمنهم عرب ومسلمون، إلا أنني وللمرة الأولى التي أسمع فيها بكل هذه المعلومات عن الإسلام. ويضيف: للأسف فإن الطلبة المسلمين الذين قمت بتدريسهم، لم يبادر أحدٌ منهم بإعطائي فكرة عن دينكم العظيم، بل إنهم لا يختلفون عن سائر الطلبة الأمريكيين في شيء وكأنهم منهم". قلت له: هل سمعت بقصة الغراب الذي أراد أن يقلد مشية الحمامة لأنه إستحسنها، أي استحسن مشيتها، إلا أنه لم يوفق في ذلك، فأراد العودة مرة أخرى إلى مشيته الأولى فنسيها وهكذا أصبح الغراب يمشي وهو يترقص بلا هدى ولا انسجام،وأصبح سخرية للآخرين، لأنه لم يتحول إلى حمامة ولا عاد غراباً كما كان.

ضحك الرجل وقال: "لم أسمع بهذه القصة من قبل، ولعلها واحدة من حكم العرب الكثيرة التي صاغوها في صورة قصة ليسهل فهمها وإستيعابها وإستنباط الموعظة منها وأعرف ما تقصد من ورائها".

طلب مني الرجل المزيد من المعلومات عن الإسلام لكي يعرفه على حقيقته، فكل ما لديه حسب قوله معلومات استقاها من تقارير صحفية أو كُتب وضعها الآخرين الذين لا ينتمون للإسلام.. أهديته مجموعة من الكتب الإسلامية باللغة الإنجليزية كان من ضمنها كتاب "محمد في الإنجيل" والذي تناولته زوجته بلهفة وهي قائلة "هذا هو الكتاب الذي كنت أبحث عنه طويلاً.. يالها من صدفة رائعة وغريبة!. فلم يدر بخلدي أبداً أن أتعرف على حقيقة الإسلام وأنا هنا في أقصى مكان عن ديار المسلمين، بل عن العالم، في القارة القطبية الجنوبية!" قلت لها: إن هذه الكتب هي لكما هدية مني، رد الرجل قائلاً: "حقاً ما تعني؟ هي لنا؟ إنها أجمل هدية تلقيتها!"

لقد عجبت للأمر!، أجمل هدية يتلقاها هذا الرجل العالم وزوجته كتب عن الإسلام!... ما أسهل وأيسر من توصيل كلمة الحق ورسالة الإسلام إلى الآخرين.. هذا الأستاذ الجامعي المثقف، يتلقف الرسالة كأنها هدية!.. هل العيب فيهم أم فينا نحن الذين لا نحاول أن نقدم ديننا وحضارتنا وإنجازاتنا عبر التاريخ للآخرين كما ينبغي؟!

تركت في مكتبة السفينة مجموعة أخرى من الكتب والمنشورات الإسلامية ومطبوعات أخرى عن دولة قطر كنموذج لدولة إسلامية يعيش فيها خليط من البشر وبأديان وثقافات وعادات مختلفة بأمن وأمان بفضل نعمة الإسلام.

لقد كسبت احترام القوم هنا على ظهر السفينة، وتمنى أغلبهم زيارة الدول العربية والإسلامية للتعرف على الإسلام والمسلمين عن كثب، وهي فرصة أخرى أسهل بكثير من هذه الفرصة لكسب ودهم وصداقتهم أو تحييدهم على الأقل.

من ضمن معالم جزيرة "دسبشون" قوارب خشبية وقد غطتها رمال الشاطئ حتى السطح. والكثير من عظام الحيتان المتناثرة هنا وهناك، ومنازل خشبية مهجورة.

غادرنا جزيرة "دسبشون" إلى جزيرتي "جونفيل أند دندي *Joinville and Dundee Islands*"